تفريغ

قراءة الشيخ عطية اللَّه الليبي
في كتاب
مختصر منهاج القاصدين

فصل: العزلة والاختلاط
لابن قدامة المقدسي

التحايا للإعلام الجهادي
قسم التفريغ
١٤٣٦ هـ ٢٠١٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تفريغ

قراءة في كتاب (مختصر منهاج القاصدين) لابن قدامة المقدسي

فصل: العزلة والاختلاط

للشيخ/ عطية الله الليبي (رحمه الله)

مُؤسَّسَة التَّحَايَا

قِسْمُ التَّفْرِيغِ وَالنَّشْرِ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه:

إذن قلنا أن هذا كتاب [مختصر منهاج القاصدين]

[منهاج القاصدين] لابن الجوزي، اختصره وهذب به [إحياء علوم الدين] للغزالي، وهذا مختصره لابن قدامة، الذي هو من عائلة الشيخ الإمام الفقيه ابن قدامة صاحب [المغني]، والله أعلم.[1]

ويتكلم المؤلف الآن في باب العزلة وفوائدها وفضلها، سبق أنه تكلم في مطلع الباب على مذاهب الناس، أشار إليها إشارات خفيفة، مذاهب الناس -يقصد العلماء- في العزلة والخُلطة، من اختار هذه ومن اختار هذه، يعني من فضَّل هذه ومن فضَّل هذه، وأشار إلى أن الصواب فيها التفصيل وأن هذا يختلف باختلاف الأشخاص، وباختلاف الأزمان، وباختلاف الأحوال.

ثم ذكر أن للعزلة ست فوائد إجمالية، يعني تحت كل واحدة كلام طويل، فهو الآن في الفائدة الثالثة.

"الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمقى"

الخلاص: يعني العزلة، يخلص فيها الإنسان من مشاهدة الثقلاء والحمقى.

الثقلاء: جمع ثقيل، هو الإنسان الذي يثقل على غيره بالإيذاء وبالفضول، وبكامل المنغصات والمكدرات، يسموهم ثقلاء، معروف هذا الاستعمال، حتى اليوم عندنا معروف، يقول لك: واحد ثقيل.

"ومُقاساة أخلاقهم"

يتأذى منهم ويقاسي أخلاقهم، يقاسيها ويعاني منها.

"وإذا تأذى الإنسان بالثقلاء، لم يلبث أن يغتابهم"

فيكون ذلك معناها ذريعةً لاغتيابهم، في العزلة الخلاص من هذا كله، هذا المقصود.

---

[1] قد وقع الخلاف في نسبة الكتاب، فمنهم من نسبة الى ابن قدامة المقدسي (صاحب المغني)، ومنهم من نسبة الى ابن اخيه وهو عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي وله ذات الكنية.

"فإن آذوه بالقدح فيه كافأهم"

وإذا قدحوا فيه فالغالب أنه يزِل إلى مكافأتهم؛ يعني الرد عليهم بمثل ما آذوه به ونحو هذا، فيقع أيضًا في مذمة.

"فانجرَّ الأمر إلى فساد الدين، وفي العزلة سلامةٌ من ذلك"

فهذه هي الفائدة الثالثة إذن: الخلاص من مخالطة الثقلاء والحمقى، والناس الذين من هذا القبيل؛ فيسلم من أن يُستجر إلى مكافأتهم، إلى اغتيابهم، إلى مُقاساة أخلاقهم، والبقاء تحت وطأة ثقلهم وإذايتهم؛ فيضيق صدره وربما يفسد قلبه، في العزلة سلامة من هذا كله، هذا معنى هذه الفائدة.

العزلة لا شك أن فيها فوائد، كثير من الفوائد التي ذكرها قبل هذه الخمس فوائد الأولى، أيضًا فيها كثير من الحق والصواب، مع بعض الملاحظات والتقييدات؛ تكلمنا عنها في حينها في الدروس السابقة.

"فصلٌ في آفات العزلة: اعلم أن من المقاصد الدينية والدنيوية ما يستفاد من الاستعانة بالغير ولا يحصل ذلك إلا بالمخالطة"

بعد ما تكلم عن فضل العزلة وما فيها من الفوائد، طبعًا قلنا أنه أشار في مطلع الباب إلى أن الصواب في الكلام على فضل العزلة أو الخلطة التفصيل، ونظَّر هو أيضًا هناك بمسائل مثل: النكاح وغيرها، متى يكون مطلوبًا؟ ومتى يكون تركه مطلوبًا؟ الأفضل فيه بحسب الأشخاص والأحوال والأزمنة.

هنا يتكلم على آفات العزلة، ذكر فضلها وما فيها من الفوائد، وهنا يتكلم على آفاتها، أشار إلى أن هناك من المقاصد الدينية والأخروية ما لا يتأتَّى إلا بمخالطة الخلق، هذا معناه، فأنت محتاج إلى المخالطة.

"ومن فوائد المخالطة، التعلم والتعليم"

"التعلم والتعليم" كيف تتعلم العلم والشريعة والدين والأخلاق والآداب والسائر العلوم التي هي مباحة ومشروعة ومستحبة وواجبة وغيرها، كيف يمكن تتعلمها إلا بالمخالطة، وهكذا إذا أردتَ أن تُعلم.

"والنفع والانتفاع"

عموم النفع والانتفاع، هذا أعم مما قبله، يعني النفع بالعلم وبغير العلم.

"والتأديب والتأدب"

كذلك واضح.

"والاستئناس والإيناس"

الاستئناس بالناس وإيناسهم أن تُدخل عليهم الأنس، أن تؤنسهم، هذا مقصود شرعي؛ لأنه فيه سكينة القلب، وفيه اطمئنان، وفيه راحة، وفي الراحة والاطمئنان والسكينة يفعل الإنسان الخير؛ لأن هذا الإنسان محتاج إلى السكينة، محتاج إلى الراحة، محتاج إلى الاطمئنان، محتاج إلى الأنس؛ ولا يأنس إلا بمجانِسِه من البشر.

"ونيل الثواب في القيام بالحقوق"

كثير من حقوق البشر، حقوق الناس، حقوق الخلق، أنت تُحرم منها في العزلة، أما في الخلطة تنال ثوابها وتُحصلها، وتقوم بها وتنال ثوابها، هذا من فوائد الخلطة.

"واعتياد التواضع"

اعتياد التواضع، لكن المنعزل كيف يتعلم التواضع وهو بعيد عن الخلق؟ لكن من يخالطهم يتربى ويتعلم، وشوي شوي يتعلم التواضع من مخالطة الناس ومعاشرتهم والعيش معهم.

"واستفادة التجارب من مشاهدة هذه الأحوال والاعتبار بها، فهذه فوائد الخلطة، ولنفصلها"

يريد أن يفصل الآن بعض التفصيل في فوائد الخلطة، مما يرجح جانب الخلطة وفضلها، كما أن العزلة لها فضائلها وفوائدها التي سبق وذكرها، فالإنسان العاقل الفقيه ينظر الأصلح والمناسب لشخصه وفي حاله وزمانه، ويفعل الخير.

"الفائدة الأولى: التعلم والتعليم، وقد ذكرنا فضلهما في كتاب العلم"

تقدَّم كتاب [العلم]، في هذا الكتاب –الكتاب يقصد بِهِ الباب–

الكتاب هو أعم من الباب وأشمل عندهم في اصطلاح التصنيف، الكتاب يكون تحته أبواب، والباب من الأبواب تحته فصول، وهكذا، فروع، مسائل...إلخ.

"فأما من تعلم الفرض ورأى أنه لا يتأتى منه الخوض في العلوم، ورأى الاشتغال بالعبادة فليعتزل، وإن كان يقدر على التبرز في علوم الشرع، فالعزلة في حقه قبل التعلم غاية الخسران"

معناها أن هذا تفصيل للكلام الذي قاله أولًا ويختلف باختلاف الأشخاص، واحد -مثلًا- يُرجى له التبرز في العلم -يقصد أن يبرز فيه-، عاقل ذكي، عنده جلد على السرد والجرد والقراءة والكتابة والسهر، وعنده شغف ومحبة للعلم وفهمٌ فيه، وحسن فهم، ويرجى له أن يكون من أهله وأن ينبغ فيه، هذا يقال له اذهب تعلَّم.

لكن شخص آخر يكفيه أنه تعلم الفرائض، وتعلم ما يقيم صلاته وصومه وضروريات العلم في حقه، العلم العيني المتعين عليه وبعض ما يفيده من المستحبات، وكان عنده جلدٌ وقوةٌ على العبادة ومحبة للعبادة فهذا ممكن يعتزل، العزلة جيدة مناسبة لهذا الثاني الأخير، ولكن الأول لا.

هذا المثال يوضح الكلام الذي قلناه، الذي هو يختلف حكمها وفضلها من عدمه، بحسب الأشخاص وبحسب الأحوال وهكذا.

"ولهذا قال الربيع بن خثيم: تفقَّه ثم اعتزل، والعلم أصل الدين، ولا خير في عزلة العوام"

"لا خير في عزلة العوام" العالم يعتزل، يعني ما يخالط الناس؛ لأن الكلام هنا عن العزلة بمعنى ترك المخالطة في أكثر الأحوال وعمومها، لكن ليس معناها ترك الجمعة والجماعة وترك الجهاد!

"سُئل بعض العلماء: ما تقول في عزلة الجاهل؟ فقال: خبالٌ ووبالٌ"

نسأل الله العفو والعافية، كيف يتعلموا؟ وكيف يتفقهوا؟ وكيف يصلح دينه وقلبه وهو جاهل؟ ويعتزل الناس ويترك مجالس العلم ويترك مصاحبة الصالحين!! ما يستفيد يعني.

"فقيل له: فالعالم؟ فقال: ما لك ولها، دعها، معها حذاؤها وسقاؤها"

هذا اقتباس من حديث النبي ﷺ في باب اللقطة، حديث اللقطة المشهور، يعني لما سئل عن اللقطة، ثم سئل عن لقطة الغنم، فقال: هي لك أو لأخيك أو للذئب.

سئل عن لقطة الإبل، قال: "ما لك ولها، دعها معها سقاؤها وحذاؤها" معناه أنها لا تضيع.

الإبل من شأنها أنها إذا تسرح وتمشي الأيام والليالي وربما تغيب فترات طويلة وترجع لصاحبها، وصاحبها يمشي يطلبها -يدور عليها-، فما تضيع، ومعها حذاؤها وسقاؤها.

حذاؤها: أخفافها، تتحمل المدة الطويلة والمشي الطويل.

وسقاؤها: أنها ما تحتاج الشربة، ما تحتاج تشرب، إذا شربت روت، تبقى مدة طويلة، سفينة الصحراء، والله أعلم.

هذا اقتباس منها، يعني معناه من هو متضلع من العلم فهذا لو اعتزل هو تمثَّل بهذا الحديث، يعني أجراه مجرى المثل ومجرى الرمز فاقتبسه وعبر به عن المقصود هنا، معناها العالم والفقيه لو اعتزل خلاص اتركه معه حذاؤه وسقاؤه.

"ترِد الماء، وتأكل الشجر حتى يلقاها ربها"

تمام الحديث الذي هو اقتبسه.

"وأما التعليم، ففيه ثوابٌ عظيم إذا صحَّت النية فيه"

تعليم الناس العلم النافع.

"ومتى كان القصد إقامة الجاه والاستكثار من الأتباع فهو هلاك الدين"

نسأل الله العافية والسلامة، هذا بالنسبة للمعلم أنه إذا كان قصده هذا الاستكثار من الأتباع وقصده الجاه -أن يكون له جاه- وغير هذا من المقاصد الدنيوية غير الأخروية؛ فهذا -والعياذ بالله- هلاك ووبال على صاحبه.

"وقد سبق ذلك في كتاب العلم. والغالب في هذا الزمان سوء القصد من المتعلمين فيقتضي الدين الاعتزال عنهم"

هذا النظر إلى الزمان والأحوال، هو يقول لك في هذه الأزمان المتأخرة فكيف بزمننا هذا الآن؟! في القرن السابع أو الثامن وهو يقول هذا الكلام، فكيف بزمننا هذا؟!

لاشك أن الغالب على المتعلمين هو المقاصد السيئة، نسأل الله العافية والسلامة.

"فإن صودف طالبٌ لله ومتقربٌ بالتعلم إليه، لم يجزْ الاعتزال عنه"

"لم يجز الاعتزال عنه" إذا كان محتاجًا لمن يعلمه، أنت إنسان تستطيع أن تعلم الطلبة، آتاك الله علمًا –وكنتَ من أهل العلم– ووجدتَ الطلبة موجودين ومحتاجين لمن يعلمهم، وهم بهذه المنزلة، يعني طالبون لله ولليوم الآخر، وللفوز والنجاة في اليوم الآخر، طالبون للطلب الأخروي الممدوح، يعني المحمود المحبوب لله –سبحانه وتعالى– نياتهم ومقاصدهم صحيحة.

حين إذن لا تنعزل عنهم وتتركهم وتمشي وتقول: أنا أتعبد، وأنا لا أريد أعلم الناس، ولا أنتصب للعلم، ولا أبغي التعليم أو شيء. هذا خطأ، هذا لا يجوز إذا كان ليس هناك من يسد ثغرة؛ لأن الأصل أنه كفاية إذا وُجد من يعلمهم.

لكن إذا ما وجد من يعلمهم، إلا بمشقةٍ بالغة أو صعوبة، أو لم يوجد أصلًا، تعذر، حين إذن لا يجوز الاعتزال عنهم بل يجب عليك أن تقوم بواجب التعليم، وفيه تفصيل، هذا يجري على هذا النسق في التفصيل في أحكامه.

"ولا يحل كتمان العلم، ولا ينبغي أن يغتر بقول من قال: تعلمنا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله"

يعني يريد أن يقول لك: أن هذه العبارة التي وردت عن بعض السلف –تجدونها في كتب الفقيه والمتفقه وآداب طالب العلم– يذكرونها أهل العلم، جماعة من السلف قالوها، غير واحد من السلف قالها: "تعلمنا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله"

ومرادهم أن العلم يجر صاحبه إلى الله –عز وجل–، لكن ليس معناها: يا طالب العلم، لا يهمك النية وتصحيح المقصد من البداية؛ واطمئن لأن العلم سيأتي بك سيأتي بك. لا، لا تفهم هكذا، لا تغتر بهذه العبارة.

لكن معناها أنها تُحمل على أنه ما كانوا يعرفوا، كانوا جهال بها، وكانوا صبيانًا صغارًا، تعرف أنت الصبي الصغير لما يرسل إلى الكُتاب وإلى المعلمين وإلى المؤدبين يتعلم منهم، يكون ليس عنده قصد صحيح، ما زال لا يعرف الإخلاص والرياء والمعاني هذه وكذا، وربما يغلب عليه أنه المحبة والشغف بالعلم، ومحبة أنه يكون من العلماء، وأنه يكون متعلم.

وربما يقصد أيضًا مُراءاة الناس والشهرة، وربما يدخل عليه هذا لكن هو ما زال في الغالب إما تحت التكليف، وإما في بدايات التكليف وما زال جاهل، لكنه يكون فيه صلاح من جهة انجذابه إلى الله –عز وجل– واليوم الآخر، ومن جهة ما رزقه الله –سبحانه وتعالى– من لين القلب والتواضع والتعبد لله –سبحانه وتعالى–.

فإذا تعلم العلم جره العلم إلى الخير وانتفى ذلك الفساد الذي كان موجود؛ لأنه ناشئٌ طارئٌ بسبب جهله، بسبب بداية يعني. هذه التي عبروا عنها السلف، لكن ليس معناها أراه: لا يهمك القصد، لا، بل يجب عليك أن تصحح القصد.

"فإنه أشار بهذه العلوم إلى علوم القرآن والحديث، ومعرفة سير الأنبياء والصحابة، وذلك يتضمن التخويف والتحذير؛ وهو سببٌ لإثارة الخوف من الله –سبحانه– فإن لم يؤثر في الحال أثَّر في المآل، فأما علم الكلام وعلم الخلاف فإنه لا يرُد الراغب في الدنيا إلى الله –تعالى– بل لا يزال صاحبه متماديًا في حرصه إلى آخر عمره"

أشار إلى محمل هذه العبارة، ووجهها التي ينبغي أن تُحمل عليه، وهو أنها محمولة على من طلب علم الدين، العلم الصحيح، الكتاب والسنة وعلم الشريعة، وأراد أن يتعلم الدين وعنده محبة وانجذاب إلى الدين والتعلم –مثلما قلنا– هذا ينفعه حتى إن كان في البداية ما زال لا يعرف، لكن ينفعه العلم ويأتي به للطريق، يجره العلم إلى الإخلاص وإلى إصلاح مقصده ونيته وإصلاح قلبه ونفسه ويظهر عليه هذا ويرسخ فيه بعد مدة.

أما من كان يتعلم علوم الكلام وعلوم الفلسفة وعلوم المناظرة والجدل فهذا ما ينفعه، فلا يقول: أنا أتعلم هذه العلوم لغير الله، ليست مشكلة، لكن هي ستجرني إلى الله، لا لن تجرك! والله لن تجرك إلا إلى الهلاك –والعياذ بالله–.

"الفائدة الثانية: النفع والانتفاع"

الفائدة الثانية في الخلطة ومخالطة الناس، النفع والانتفاع، وهو أعم من العلم والتعلم الذي سبق.

"أما الانتفاع بالناس فبالكسب والمعاملة، والمحتاج إلى ذلك مضطرٌ إلى ترك العزلة، وأما إن كان معه ما يقنعه، فالعزلة أفضل"

"ما يقنعه" يعني ما يسد حاجته، من عنده ما يكفيه فالعزلة أفضل من هذا الوجه بغض النظر عن الوجوه الأخرى؛ لأنك أنت أحيانًا تجتمع الوجوه فيحتاج إلى الترجيح ويحتاج إلى الموازنة، لكن كل عنصر هو يتكلم عليه على حده الآن.

إن كان عنده ما يقنعه، عنده ما يكفيه، وفي حالة قناعة فالعزلة أفضل له، وغير لازم أن يطلب الكسب، العزلة أفضل عن الكسب وعن مخالطة الناس ومعاملتهم.

"إلا أن يقصد التصدق بكسبه، فذلك أفضل من العزلة"

"إلا أن يقصد التصدق بكسبه" يتصدق على الفقراء والمساكين ونحوهم، إذا قصد هذا، ستكون الخلطة مطلوبة؛ لأنه كيف يكسب وهو معتزل؟

"فذلك أفضل من العزلة، إلا أن تكون العزلة مفيدةً له معرفة الله –تعالى– والأنس به، عن كشفٍ وبصيرة، لا عن أوهامٍ وخيالاتٍ فاسدة"

هذه أشياء يرجح بينها الإنسان، هو قال لك إلا أن يكون يريد التصدق، بعد ذلك قال إلا أن يكون يرى أن العزلة أفضل له؛ لأنها تفيده معرفة الله والأنس به، وليس كل الناس هكذا؛ ولهذا احترز وقال لك: "عن بصيرةٍ"، وليس عن أوهام.

يعني إذا عرفت بالفعل عن بصيرة وتبين لك أن العزلة مفيدةٌ لك، تفيدك معرفة الله والأنس به، والتحقق بعبادة الله –سبحانه وتعالى– والسير في طريق العبودية لله –سبحانه وتعالى– سيرًا صحيحًا مستقيمًا والاجتهاد بها، فلا بأس عن بصيرة.

وأضاف هو: "أو كشفٍ"

طبعًا العلماء وقع منهم هذا كثير، خاصةً في هذه القرون، وفيه حقٌ وفيه باطلٌ، ما نريد نتكلم فيه الآن، لكن المقصود إذا كان عن بصيرة تبين لك هذا لا بأس، لكن إذا كان أوهام؟ ظننتَ أنه ممكن يفيدك وهو ما يفيدك! فاحترز من هذا وانتبه وما ترجح به.

"وأما النفع: فهو أن ينفع الناس إما بماله أو ببدنه؛ لقضاء حوائجهم، ومن قدر على ذلك مع القيام بحدود الشرع فهو أفضل من العزلة إن كان لا يشتغل في عزلته إلا بنوافل الصلوات، والأعمال البدنية"

لأن هذه الأعمال التي ينفع بها الناس أعظم من الاشتغال بنوافل العبادات القاصرة من صلاةٍ ليلًا ونهارًا، وقراءة القرآن وذكر لله وهكذا.

نفع الناس مقدمٌ عليها إلا القدر المتعين منها أو الواجب طبعًا، لكن المستحب منها والمتطوع بها أفضل منه الاشتغال بنفع الناس، طبعًا هذا في حالة عدم التعين، لا هذا ولا هذا، إذا تعين فالمتعين هو المتعين خلاص، المتعين هو الأفضل، (ما تقرب إلي عبدي بشيءٍ أحب إلي مما افترضته عليه).

لكن في حال أن كونها نوافل جميعها وكونها كلها تطوعات فالاشتغال بما ينفع الناس الذي هو نفعه متعدي أفضل.

من مرجحات الأعمال التعدي والقصور المتقررة عند العلماء، وهذا لأدلة الشريعة على هذا أن العمل الذي ينفع الناس أفضل من القاصر على نفسه في العموم وفي الأغلب، ولكن قد يكون في فروع هذا الأصل فيه بعض التفصيل.

"وإن كان ممن انفتح له طريق العمل بالقلب بدوام ذكرٍ أو فكر، فذاك الذي لا يُعدل به ألبتَّة"

هذا إشارة إلى أنه قد يترجح القاصر أحيانًا على المتعدي، طبعا هذا كله مقيد إذا لم يتعين هذا الفعل المتعدي، أو القصر لم يتعين أحدهما، لك أن تتنفل بالعبادة كالصلاة وتلاوة القرآن، ولك أن تتنفل بأن تذهب للناس هنا، الناس جالسة تبني تحضر معهم الطوب وتعاونهم وتخدمهم قليلًا، هم محتاجين من يعاونهم، أيهما أفضل؟ ونحو هذا قِسْ عليه.

فيقول لك في الأغلب والأعم نفع الناس أفضل، لكن قد توجد بعض الحالات -بعض الناس- الأفضل له هو أن يبقى في بيته أو في عزلته ومكانه ويتعبد؛ لأنه أفيد لقلبه، لأنه ينفتح عليه في العبادة، ولا يختلف فيه الناس.

هذا إذا جلس للعبادة وقراءة القرآن يفتح عليه في الإيمان، مقامات الإيمان والاتصال بالله -سبحانه وتعالى- ومناجاة الله -عز وجل- ودعائه، ويحصل له علو في الإيمان وكمال وتمام، فهذا يكون في حقه أفضل، والله أعلم.

يكفي هذا القدر، وجزاك الله خيرًا.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.